شخصية يوسف -عليه السلام- في القرآن الكريم

قراءة في تطور الشخصية وتقنيات السرد القصصي

" دراسة تحليلية "

بقلم الدكتور

ياسر أحمد حامد مرزوق

الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية، كلية التربية والآداب

جامعة تبوك ـ المملكة العربية السعودية

المجلد السادس والعشرون للعام ٢٠٢٢م

الجزء الثاني (إصدار ديسمبر)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

شخصية يوسف-عليه السلام- في القرآن الكريم قراءة في تطور الشخصية وتقنيات السرد القصصي " دراسة تحليلية "

ياسر أحمد حامد مرزوق

قسم اللغة العربية ـ كلية التربية والآداب ـ جامعة تبوك ـ المملكة العربية السعودية .

البريد الإلكتروني : yasermarzook995@gmail.com

الملخص

يكتنف الحديث عن الشخصية الإنسانية عادة كثير من الغموض، وشيء من التداخل؛ فهو حديث عن تراكمات نفسية، ودواع داخلية، ومتغيرات انطباعية قد أوجدها الله سبحانه وتعالى لدى النفس البشرية، وهي النفس المتغيرة المتحولة ذات الأقسام والأنماط المختلفة.

وعنصر الشخصية واحد من أهم عناصر العمل السردي، وقد اختار هذا البحث شخصية النبي يوسف عليه السلام مادة له بوصفها واحدة من أبرز الشخصيات التي قدّمها القرآن الكريم للمتلقي.

وتأتي أهمية هذا البحث لتناوله شخصية إنسانية مؤثرة كما صورها القرآن، وبما تحمله من مواقف للاحتذاء والاقتداء. وتتمثل مشكلة البحث في عدة تساؤلات منها:

لماذا شخصية النبي يوسف عليه السلام؟ هل من نمط معيّن لهذه الشخصية ميّزها عن غيرها من الشخصيات؟ ما مدى التطور الذي طال هذه الشخصية من خلال هذه القصة القرآنية البليغة؟

وهدف البحث إلى استنباط نمط شخصية يوسف عليه السلام، وتتبع تطورها من ابتداء القصة وحتى ختمها، مستتبعًا المنهج التحليلي ومستعينا بأدوات مناهج أخرى مثل المنهج النفسي. كما هدف البحث إلى رصد وقراءة العلاقة بين الشخصية

وعناصر بناء القصة مثل الحوار والمكان والزمان، كذلك الوقوف عند تقنيات السرد الفني الذي جاءت في إطاره القصة.

وخلصت نتائج البحث إلى وجود تطور لافت في هذه الشخصية وفق ثلاث مراحل هي: مرحلة الرؤيا وفتنة غيابة الجُب، ومرحلة فتنة الإغواء والسجن، ومرحلة فتنة الدنيا ومتطلبات المنصب الأثير واجتماع الشمل. بحيث كانت شخصية يوسف عليه السلام الشخصية الرئيسة والمتنامية، التي جرى تكوينها من أول القصة، وتشكلت بتمامها بحيث تطورت من حدث إلى آخر، وظهر لنا تطورها من موقف لآخر، وظهر لها في كل موقف تصرّف جديد كشف لنا عن جانب جديد منها. كما خلص إلى أن عناصر بناء القصة أدت دورًا مهمًا في تطور الشخصية، كذلك تقنيات السرد والسياق الذي جاءت فيه.

الكلمات المفتاحية : الشخصية، يوسف عليه السلام، نمط الشخصية، السرد، تقنيات السرد .

The personality of Yusuf - peace be upon him - in the Holy Qur'an, a reading in the development of personality and "storytelling techniques "analytical study

Yasser Ahmed Hamed Marzouk

Arabic Language Department, College of Education and Arts, Tabuk University, Saudi Arabia.

Email: yasermarzook995@gmail.com

Abstract

Talking about the human personality is usually shrouded in a lot of ambiguity, and some interference; It is a talk about psychological accumulations, internal motives, and impressionistic variables that God has gave him the exact of the human self, which is the changing, transforming self with different sections and patterns.

The personality element is one of the most important elements of the narrative work, and this research has chosen the personality of the Prophet Yusuf, peace be upon him, as his subject as one of the most prominent personalities presented by the Holy Qur'an to the receiver.

The importance of this research lies in the fact that it deals with an influential human personality as depicted in the Qur'an, and what it bears from the positions of emulation and imitations. The research problem consists of several questions, including:

Why the personality of Prophet Yusuf, peace be upon him? Is there a certain style of this personality that distinguishes it from other personalities? What is the extent of the development of this personality through this eloquent Quranic story؟

The research aimed to elicit the style of the personality of Yusuf, peace be upon him, and trace its development

from the beginning of the story to its end, following the analytical method and using other methods tools such as the psychological method. The research also aimed to observer and read the relationship between the personality and the elements of story construction, such as dialogue, place and time, as well as to consider the techniques of artistic narration within which the story came.

The results of the research concluded that there is a remarkable development in this personality according to three stages: the first; the stage of vision and the sedition of the absence of the forehead, and the second; the stage of seduction of beguilement and imprisonment, and the third; the stage of the minimum sedition and the requirements of the ether position and the reunion meeting. So that the personality of Yusuf, peace be upon him, was the main and growing personality, which was formed from the beginning of the story, and was completely formed so that it developed from one event to another, and its development appeared to us from one situation to another, and in each situation a new behavior revealed to us a new aspect of it. He also concluded that story building elements played an important role in character development, narrative techniques and the context in which they came.

Keywords: personality - Yusuf, peace be upon him - personality style - narration - narration techniques .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

يأتي الحديث عن الشخصية الإنسانية عادة مكتنفًا بكثير من الغموض، وشيء من التداخل؛ فهو حديث عن تراكمات نفسية، ودواع داخلية، ومتغيرات انطباعية قد أوجدها الله سبحانه وتعالى لدى النفس البشرية، وهي النفس المتغيرة المتحولة ذات الأقسام والأنماط المختلفة.

والبحث عن الشخصية قد أشغل كثيرًا من المشتغلين في العلوم النفسية والاجتماعية، وكذلك في حقل الدراسات الأدبية، وبطبيعة الحال ما يهم البحث هنا هو تناول الشخصية في هذا الإطار الأدبي؛ لاعتقادنا بأن الشخصية عنصر من أهم عناصر العمل السردي، الذي لا يقوم إلا بها. وقد اختار البحث شخصية النبي يوسف عليه السلام بوصفها واحدة من أبرز الشخصيات التي قدّمها القرآن الكريم للمتلقي.

وتأتي أهمية هذا البحث انطلاقًا من البحث في الشخصية الإنسانية كما صورها القرآن، وبما تحمله من مواقف إيمانية، ولفتات تربوية، وتوجيهات وعظية للاحتذاء والاقتداء. مع ملاحظة أن النص القرآني ليس نصًا تخييليًا، وشخوصه مجرد شخوص على الورق كما جاء في تعبير (رولان بارت) و(تودروف)، بل هي شخصيات حقيقية لها وجودها التاريخي، وتحيل إلى عوالم مألوفة ومحددة في إطار الثقافة والوعي الشخصي والجمعي، لذا فمن الممكن إدراجها ضمن الشخصيات المرجعية التاريخية في تصنيف (فيليب هامون) الشهير.

وتتمثل مشكلة البحث في عدة تساؤلات منها: لماذا شخصية النبي يوسف عليه السلام؟ هل من نمط معيّن لهذه الشخصية ميّزها عن غيرها

من الشخصيات؟ ما مدى التطور الذي طال هذه الشخصية من خلال هذه القصة القرآنية البليغة؟ هل من مؤثرات في تكوين هذه الشخصية؟.

وهدف البحث إلى استنباط نمط شخصية يوسف عليه السلام، وتتبع تطورها من ابتداء القصة وحتى ختمها، مستتبعًا المنهج التحليلي فضلا عن القراءة النفسية المعينة على الرصد والتأمل.

ولم يظفر البحث بدراسة تعنى بهذا الجانب السردي تحديدًا في شخصية النبي يوسف عليه السلام في القرآن الكريم؛ إلا ما كان من دراسات حول صفات أو إحدى الصفات التي امتازت بها شخصية يوسف عليه السلام كصفة الإحسان مثلًا، وذلك في بحث بعنوان: "الشخصية المُحسنة في القصص القرآني: يوسف عليه السلام نموذجًا" للباحثة خلود الحواري

ومما هو واضح من عنوان البحث فقد جاء تركيزه على صفة بعينها هي صفة الإحسان الذي ميّز هذه الشخصية النبوية الخالدة، مستقرئة المواضع التي تجلى فيها إحسانه عليه السلام من خلال سورة يوسف، بما يكون شاهدًا على هذه الصفة المتأصلة لديه. وقد اعتمدت الباحثة على المنهج الاستقرائي إجمالًا، والمنهج التحليلي الاستنباطي خصوصًا.

ومن الدراسات كذلك دراسة بعنوان: "القصص القرآني وتشكلاته قصة يوسف عليه السلام أنموذجًا" للباحثة زينب علي عبيد، تناولت فيها أسلوب القصّ في القرآن الكريم ومنه الأسلوب الذي قُدّمت به قصة يوسف عليه السلام، ومتناولة أنماطَ مثل هذا القصّ الفريد، مركّزة على الحدث القصصي القرآني، وكذلك السلطة المكانية ومدى تأثيرها في الشخصية القصصية.

ولربما جاء شيء من الاتفاق في تناول واحد من أبرز العناصر السردية القصصية ألا وهو الشخصية؛ لكن الباحثة جعلتها مرتبطة بعنصر

المكان، بحيث لم تستتبع نمطها وتطوراتها من أول القصة حتى منتهاها، كما هو في هذا البحث. وكان أن اتكأت في بحثها على المنهج الأسلوبي عمومًا.

وجاء هذا البحث موضوع الدراسة في مقدمة تناولت الأهمية، ومشكلة الدراسة، وأهدافها، والدراسات السابقة لها. ثم تمهيد عن الشخصية بين الأدب وعلم النفس والاجتماع، ومبحثين، جاء الأول بعنوان: الشخصية السردية تعريفها، وملامحها، وأقسامها، وأنماطها. وجاء المبحث الثاني بعنوان: تحليل شخصية يوسف عليه السلام سرديًا في القرآن الكريم، بمطلبين: الأول: الأنماط والتطور، والثاني: علاقة الشخصية بعناصر بناء القصة وتقنياتها السردية.

ثم خاتمة لخّصت أهم النتائج التي توصّل إليها البحث.

تمهيد:

ورد في القاموس المحيط: "(الشَّخْصُ): سواد الإنسان وعين تراه من بُعد، (ج) أشخاص، وشخوص، وأشخاص،..."[١] وجاء في المعجم الوسيط: (الشاخِصُ): الشيء الماثل، وطلق على الهدف والعلامة البارزة للحدّ وللقائم يُحدد به القياس. (الشَّخْصُ): ظل جسم له ارتفاع وظهور، وغلب في الإنسان. و–عند الفلاسفة: الذات الواعية لكيانها المستقلة في إرادتها، ومنه "الشخص الأخلاقي"، وهو من توافرت فيه صفات تؤهله للمشاركة العقلية والأخلاقية في مجتمع إنساني. (ج) أشخاص، وشخوص...، (الشَّخْصية): صفات تميز الشخص عن غيره. ويقال: فلان ذو شخصية قوية: ذو صفات متميزة، وإرادة وكيان مستقل..."[٢].

واستعمل هذا المصطلح في العصر الحديث مرتبطًا بمعنى الفردية Individuality، والخُلُق Character بحيث إن الكلمتين كثيرًا ما تستعملان بمعنى الشخصية نفسها.[٣] ويختصرها الدكتور (سيميونوف) مشيرًا إلى أن الشخصية هي ما يجعل الإنسان يختلف عن غيره.

والواقع أن الشخصية تركيب معقد، وإننا نحتاج إلى ألفاظ دقيقة لتعريفها؛ فهي كالطبيعة الجغرافية، بما فيها من جبال وأنهار وصحارٍ وغابات، وكل هذه تؤثر في نوعية الهواء والماء، وكلها في تغيّر مستمر

---

١) الفيروزابادي، مجد الدين، القاموس المحيط، مجلد/٢، بيروت: دار المعرفة، (د.ط)، ص٣٠٥ – ٣٠٦.

٢) مصطفى، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، ج/١. استانبول: المكتبة الإسلامية، (د.ط)، ص٤٧٥.

٣) يُنظر: مهدي، عباس، الشخصية بين النجاح والفشل، بيروت: دار الحرف العربي، ودار المناهل، ١٤١٩هـ=١٩٩٨م، ص١٦.

بسبب احتكاك بعضها ببعض، وبسبب تأثير عوامل أخرى فيها.[١] والشخصية الإنسانية من الصعوبة بمكان من حيث فهمها، أو التنبؤ بأفعالها،.

وربما ساد في الاعتقاد أنه بدراسة صفاتها أو سماتها العامة يمكن الكشف عن مكنوناتها، وهو أمر متعذر كما يقرر علماء النفس؛ إذ إن الشخصية عادة ما تتأثر بمحيطها من أقوال وأفعال الناس من حولها. "وعندما يتحدث الباحثون عن سيكلوجية الشخصية فإن الحديث يتجه بالدرجة الأولى إلى نظريات الشخصية؛ لأن موضوع محددات الشخصية يكاد أن يتوازى مع محددات السلوك كما تعالج في علم النفس العام، وعلم النفس النمائي"[٢]

صحيح أن شخصية الفرد تتكون من مزيج من أهدافه وتصرفاته وآرائه وعاداته ومقاييسه الخلقية، ومدى فهمه لنفسه، ومقدار تقييمه لها كما يرى الباحث الاجتماعي (كلوكهون)؛ لكن البرفسور (شيفر) يؤكد على الأهمية الاجتماعية لعلاقتها بفن الانسجام مع الناس

إلا أن قابلية الانسجام مع الناس تتغلب عليها أحيانًا لمحات سلوك أخرى منها: التأثر بالمزعجات من أعمال الناس وأقوالهم، وطريقة الكلام والشكل، والدوافع والمقصد، ومدى ملاءمة سلوك الفرد لما يعتبره الناس خُلقيًا وخيّرًا؛ عليه فشخصية الفرد مهما كانت بالنسبة إلى المقاييس العلمية الثابتة، فهي بالنسبة إلى الناس نفسُه الاجتماعية.[٣]

---

١) يُنظر: مهدي، عباس، الشخصية بين النجاح والفشل ، ص١٧.

٢) جابر، عبدالحميد جابر، نظريات الشخصية، مج/١٦، ع/٣، مجلة العلوم الاجتماعية، الكويت: جامعة الكويت-مجلس النشر العلمي، ١٩٨٨م، ص٢٦٢.

٣) ينظر: عباس مهدي، مرجع سابق، ص٢٢، ٢٣.

ولعله قد ساد في الاعتقاد أنه بدراستنا للصفات أو السمات التي يتصف بها الإنسان كان من الممكن أن يوصلنا ذلك إلى كشف مباشر عن شخصيته

وقد يكون من السهولة بمكان ضبط المعايير المحددة في ذلك؛ لكن الشخصية لا يمكن أن تحدد بهذا الشكل، فلا السمة بمفردها، ولا السمات بمجموعها يمكن أن تشرح السلوك بنفسها. فإذا "كان من البله أو من العبث معرفة الذات البشرية، فكيف بالإمكان معرفة الشخصية معرفة عميقة؟"[١] وعلى الرغم من ذلك فمثل هذا القول لا يحطّ من قدر النظريات والدراسات والأبحاث في مجال الشخصية، بل يؤكد على أهمية هذه الإسهامات، ومدى توسعها، وبالتالي مدى ثرائها وإثرائها.

١) جوف، فانسون، أثر الشخصية في الرواية، ترجمة: لحسَن أحمامة، دمشق: دار التكوين لتأليف والترجمة والنشر، ٢٠١٢، ص٩.

المبحث الأول

الشخصية السردية: تعريفها وملامحها وأقسامها وأنماطها

أضحى مصطلح الشخصية من أبرز المصطلحات الغربية في النقد الغربي اليوم، وقد غاب مثل هذا المصطلح طويلًا عن الدرس النقدي العربي، إلى أن وصل إلينا في العصر الحديث مترجمًا عن اللغة الفرنسية حيث استعملت كلمة "شخص" (Personne) في القرن الثاني عشر الميلادي في الفرنسية مشتقة من أصلها اللاتيني القديم[١]، الذي دلّ في بدايته على القناع الذي يضعه الممثل على وجهه أثناء أداء الدور المسند إليه في المسرحيات التراجيدية ثم صار بعد ذلك يدل على الدور نفسه[٢]، ثم تطور حتى أصبح يدل على مطلق القائم بالدور أمأساويًا كان أم غير ذلك.[٣]

والشخصية من منظورها السردي الحكائي عنصر مشارك من عناصر النص الروائي تتفاعل مع ما يحيط بها من أحداث سواء بالسلب أم بالإيجاب، ولديها القدرة على استيعاب العديد من المتغيرات والتقلبات الحضارية والفكرية من خلال تشكيل الروائي لها وفق نسق مميز متفق مع بنائها الفني بشكل يسهم في تكوين بنية النص الروائي (الدال) بوصفها وحدة دلالية.

---

١) يُنظر: روزنفال ويودين، الموسوعة الفلسفية، ترجمة: سمير كرم، بيروت: دار الطليعة، ط٢، ١٩٨٠م، مادة: (شَخَصَ).

٢) يُنظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، القاهرة: دار إحياء التراث، ط٢، ١٩٧٣م، مادة: (شَخَصَ).

٣) يُنظر: التنوخي، محمد، المعجم المفصل في الأدب، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ط)، ١٩٩٣م، ج٢، ص٥٤٦، ٥٤٧.

لذا فإن عنصر الشخصية من "زاوية التحليل الدلالي، هو العنصر الرئيس في التصنيف والتحديد والحكم القيمي، فالشخصية في أي بناء لا يمكن فصلها عن الخزان الثقافي الذي تشتق منه الترسيمات الفنية والدلالية والتركيبية على حد سواء. فالتلوين الثقافي ليس وليد الكوني والعام"[١] وتظل الشخصية عنصرًا مهمًا قائمًا في بنية الفن القصصي إجمالًا بحيث لا يمكن الاستغناء عنها، بل تعدّ عنصرًا مؤسسًا، وقوة مولّدة للأحداث تؤثر فيها وتتأثر بها، وتتحرك في الزمان والمكان مشكلة بعلاقاتها المتصارعة عنصرًا للتشويق والإثارة[٢]، وفق نظام يصنعه النص بشكل تدريجي؛ "لكنها لا تعدم في بداية ظهورها هوية عامة، فهي في البداية شكل أو بنية عامة، وكلما أضيف إليها خصائص أضحت معقّدة غنية مرغّبة من دون أن تفقد هويتها الأصلية"[٣] "وليس ثمة قصة واحدة في العالم من غير شخصيات"[٤]

وإذا كانت الشكلانية متمثلة على وجه الخصوص في أبحاث الروسي (فلاديمير بروب)، ونقد علم الدلالة المعاصر في أبحاث (غريماس) قد حاولا معًا تحديد هوية الشخصية في الحكي بشكل عام من خلال مجموع أفعالها، دون صرف النظر عن العلاقة بينها، وبين مجموع الشخصيات الأخرى التي

---

١) بنكراد، سعيد، سيميولوجية الشخصيات السردية، رواية الشراع والعاصفة لحنّا مينة نموذجًا، عمّان: دار مجدلاوي، ٢٠٠٣م، ص١١.

٢) يُنظر: الفواز، الريم مفوز، سيميائية الشخصية في الرواية السعودية، بيروت: دار الانتشار العربي، جدة: النادي الأدبي الثقافي بجدة، ٢٠١٥م، ص ٢٣.

٣) القاضي، محمد، وآخرون، معجم السرديات، تونس: دار محمد علي، لبنان: دار الفارابي، ٢٠١٠م، ص٢٧١.

٤) بارت، رولان، مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، ترجمة: د. منذر عياشي، حلب: مركز الإنماء الحضاري، ١٩٩٣م، ص٦٤.

يحتوي عليها النص؛ فإن هذه الشخصية قابلة لأن تحدد من خلال سماتها، ومظهرها الخارجي. ولم تغفل كذلك الأبحاث الشكلانية والدلالية هذا الجانب رغم توسعها الملاحظ في جانب الوظائف التي تقوم بها الشخصيات في الحكي.

ويرى (تودروف) أن العلاقة القائمة والمتغيرة بين الشخصيات في الأعمال الروائية تبدو متعددة، ويرى أن مثل هذا التعدد يمكن إرجاعه إلى ثلاثة حوافز أساسية هي:

١- الرغبة، وشكلها الأبرز هو الحب.

٢- التواصل، ويجد شكل تحقيقه في الإسرار بمكنونات النفس إلى صديق.

٣- المشاركة، وشكل تحققها هو المساعدة.

ومثل هذه الحوافز على ما هو ملاحظ حوافز إيجابية، أي أنها تدفع إلى علاقات تقارب بين الشخصيات الروائية. ويقابل هذه الحوافز حوافز أخرى ضدية أو سلبية من شأنها أن تدفع إلى علاقات بُعد بين الشخصيات الروائية، وهي:

١- الكراهية، تقابل الحب الذي هو الشكل الأبرز للرغبة.

٢- الجهر، ويقابل الإسرار الذي يحققه حافز التواصل.

٣- الإعاقة، ويقابل المساعدة التي يحققها حافز المشاركة.

ومهما يكن من أمر مثل تلك الحوافز سواء ما كان منها إيجابيًا أو سلبيًا فهي حوافز نشطة تدفع إلى فعلٍ ما وفق إيجابية تقرّب، وسلبية تبعد.[١]

---

١) يُنظر: العيد، يمنى، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، بيروت: دار الفارابي، ط٢، ١٩٩٩م، ص٥٢، وما بعدها.

وفي المقابل فقد "كان منطلق (بروب) هو تحديد العناصر المشتركة بين الحكايات، أي محاولة الوصول إلى اعتبار الحكايات تحققًا متنوعًا لنموذج عام وكوني، وكان ذلك يعني البحث عن العنصر الثابت في الحكاية، وعزله عن العناصر المتحولة بهدف خلق بنية عامة تتحقق في أشكال متعددة، فما يشكل الحكاية، وما يحدد ماهيتها هي العناصر الثابتة وليس غيرها"(١)

والشخصية السردية كيان متحول متغير، من الصعب أن يشكّل سمة أو منطلقًا يمكن الاستناد إليه في سبيل تقديم دراسات محايثة لنص الحكاية، إذ هي عنصر متغير من حيث أسماؤها وهيئاتها وأشكال التجلي لديها، فقد تأتي على هيئة كائن بشري، أو حيواني، أو نباتي، أو كائن لا مرئي، أو جماد من الجمادات، ونحو ذلك.

وقد لا يبرز دور الشخصية الحقيقي إلا باقترانها بالحدث الروائي سواء أجاء هذا الحدث معبّرًا عن فكرة الكاتب بشكل مباشر أم جاء معتمدًا في طرحه على الرمزية والإيحائية؛ فالشخصية السردية وثيقة الصلة بالحدث السردي، وهذا الحدث هو الذي يمكنه تجلية أبعاد الشخصية وسبر أغوارها من جهة، وجعلها محددة السلوك الخارجي للمتلقي من جهة أخرى، لذا فكلا العنصرين مكمل أحدهما للآخر، إضافة إلى ما تضيفه باقي عناصر السرد الأخرى؛ عليه ومن أجل إعطاء تحديد دقيق لمفهوم الشخصية السردية كان لا بد من الإشارة إلى أن عنصر الشخصية لا يشكل داخل النص السردي سوى عنصر من عناصر السرد التي يعجّ بها فضاء النص، وأن

---

١) بنكراد، مرجع سابق، ص٢١.

إدراكها لا يكون كذلك بمعزل عن باقي العناصر الأخرى[١]، ومثل هذا يزيد من قوة هذا العنصر داخل البناء السردي، ويجعل له دورًا مهمًا وبارزًا.

لذلك كان لكل شخصية دور مبرمج محكوم كما يذكر سعيد بنكراد باستراتيجية التحولات التي تقود بالضرورة إلى نقطة إرساء دلالية محددة من خلال عملية البناء نفسه ومثل هذه "الاستراتيجية" تحتوي على سلسلة من الاختيارات السردية المدرجة ضمن مبدأ التوقعية؛ فالنص كما يقول (إمبرتو إيكو) هو نتاج يشكل قدرة التأويل جزءًا من قدره التوليدي، إنه ككل استراتيجية يحتوي على استراتيجية الآخر...، وبالفعل إذا ما أخذنا بعين الاعتبار بعض الصفات الدالة على الوظائف الاجتماعية (العامل – الفلاح – الشرطي – الطبيب – ...)

لاحظنا أن الشخصيات المحددة من خلال هذه الصفات تملك بشكل قبْلي حمولة دلالية محتملة، إنها تحيل إلى معنى ممتلئ وثابت داخل نص الثقافة، كما تحيل إلى أدوار وبرامج واستعمالات مسكوكة، لذا فإن مقروئيتها محكومة كذلك بدرجة مشاركة القارئ/المتلقي في هذه الثقافة بحيث يجب أن تُفهم وأن تعرف لأن انضواءها داخل ملفوظ ما، يجعل منها نقطة إرساء مرجعية تحيل إلى النص الكبير للإيديولوجيا فيكون التحرك وفق هذا التصور ضمن نصين متوازيين في الآن نفسه: النص الخاص، ونص الثقافة الذي يحتويه؛ ومن هنا لا يمكن إنجاز قراءة ذات مردودية تحليلية جيدة دون الربط بين هذين النصين ضمن حركة تأويلية لا تفسر الأول بالثاني، كما لا تفسر الثاني بالأول، بل تبني نصًا ثالثًا هو مزيج من النصين معًا.[٢]

---

١) يُنظر: بنكراد، مرجع سابق ، ص٣٧.

٢) يُنظر: السابق نفسه، ص١٠٨، وما بعدها.

ويميز (فليب هامون) بين ثلاثة أنواع من الشخصيات[١]:

- شخصيات مرجعية.
- شخصيات إشارية.
- شخصيات استذكارية.

وما يهمنا في هذا البحث هو النوع الأول من هذه الشخصيات؛ إذ الشخصيات المرجعية بدورها تحيل إلى مرجعية تاريخية (الأنبياء والمرسلين بعامة، لقمان، عُزير، الحسين بن علي، معاوية بن أبي سفيان، خالد بن الوليد، أبي هريرة، أبي ذر الغفاري، الحجاج بن يوسف، عنترة، ...)، فمثل تلك الأسماء تملك قصصًا معروفة لدى متلقيها، وإننا بمجرد أن نطرح اسمًا تاريخيًا ضمن سياق النص المعاصر، فإننا نقوم بعملية استحضار للإطار الفضائي الذي يحتوي قصة هذا الاسم بكل إيحاءاتها وتجلياتها، إلا أن الاسم التاريخي مرتبط دائمًا بحقبة زمنية معينة لا بوصفه إطارًا يشير إلى تحقيب معين، بل بكونه إطارًا يشتمل على سلسلة من المعارف التي تحتاج إلى معرفة سابقة تفسر سلوك هذا الشخص التاريخي.

وإذا كانت الشخصيات المنتمية إلى هذا النوع من المرجعيات لا تملك وجودًا قصصيًا واضحًا؛ فإنها مرتبطة بالوجود الأرضي للإنسان وصراعه من أجل البقاء وتفسير الظواهر الطبيعية، فهي من هذه الناحية إنما تحيل إلى قيم كونية كبرى محورها الرئيس الإنسان وعذاباته في الأرض، وتطلعه إلى خلاص سماوي، وغالبًا ما تُستثمر هذه الشخصيات بوصفها رموزًا تحيل

---

١) يُنظر: هامون، فيليب، سمولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة: سعيد بنكراد، اللاذقية: دار الحوار، ٢٠١٣م، ص١٤.

إلى ثيمات كالمقاومة والتضحية والصمود.[١] ومثل هذا ما سيشير إليه البحث عند تناوله لشخصية يوسف عليه السلام، هذه الشخصية الرمز لمعاناة البشرية وعذاباتها، حيث لا يكون الخلاص إلا بالاستعصام بالله، والصبر الجميل المفضي إلى الانفراج والتمكين.

ولدى تناولنا الشخصية السردية من حيث أقسامها، وأنماطها؛ فإن الشخصية في أي قصة من حيث الثبات والظهور لا تكاد تخرج عن كونها إما شخصية مسطّحة، أو نامية[٢]. وفي هذا النوع الأول "تقوم فيه الشخصية عادة على فكرة واحدة، أو صفة دائمة ملازمة لا تتغير طوال القصة، فلا تتأثر بأحداثها إيجابًا أو سلبًا، وتعد الشخصيات النمطية من هذا اللون...، وللشخصيات المسطّحة أو النمطية فائدتها في القصة؛ لأن القارئ يكشف أبعادها بمجرد ظهورها على مسرح الأحداث، ويرى فيهم أناسًا يألفهم في حياته، وقد يكتشف فيهم بعض أصدقائه ومعارفه".[٣]

أما النوع الآخر الذي اتفق على تسميته بالشخصية النامية، "وهي الشخصية التي يتم تكوينها بتمام القصة فتتطور من موقف إلى آخر، ويظهر لها في كل موقف تصرّف جديد يكشف لنا عن جانب جديد منها"[٤].

---

١) هامون، فيليب، سمولوجية الشخصيات الروائية ، ص١١٠، وما بعدها.

٢) اختلفت التسميات لهذين القسمين، فهناك من يسمي المسطّحة بالسطحية أو الجاهزة، أو المستديرة أو النمطية، وهناك من يسمي النامية بالمتنامية أو المعطاءة.

٣) سلام، محمد زغلول، النقد الدبي الحديث أصوله واتجاهات رواده، (د.ط)، الاسكندرية: منشأة المعارف، ص١١٤، ١١٥.

٤) إسماعيل، عز الدين، الأدب وفنونه، دراسة ونقد، ٢٠٠٢م، ط٨، القاهرة: دار الفكر العربي، ص١٠٨.

وكذلك بمقدورنا تقسيم الشخصية من حيث أثرها في بناء النص إلى: رئيسة، وهي التي تلعب الدور الأكبر والأبرز في مجريات وأحداث القصة. وهناك الشخصية الثانوية، وهي التي يقتصر دورها عادة على مساعدة الشخصيات الرئيسة، أو ربط الأحداث، أو دفعها إلى الأمام[١]، ومما يلاحظ على هذا النوع من الشخصيات هو عدم تحركها على طول خط سير القصة، بل تؤدي وظيفتها الفنية والموضوعية ثم تختفي، وبعضها تكون ذات أثر فعّال؛ لكنه سريع وخاطف. وإن شئنا ضرب مثال على هذا النوع من الشخصيات من واقع قصة يوسف عليه السلام التي بين أيدينا فإننا نجد شخصية ذلك الرجل من القافلة التي مرت بالبئر التي ألقي فيها النبي الكريم يوسف عليه السلام، والذي استبشر بوجوده بها، ونادى في القافلة: "يا بشرى هذا غلام"، بحيث لم تذكر القصة له حدثًا غير هذا؛ لكنه الحدث الفعّال والقوي لحظتئذ؛ لتستمر بعدها الأحداث.

وفي حديثنا عن أنماط الشخصية كان لزامًا أن نذكر نمطين رئيسين هما: الشخصية ذات النمط الإيجابي، ونعني بالإيجابي هنا دور الشخصية الخيّر أو السوي. والنمط الآخر فهو الشخصية ذات النمط السلبي، وتحديدًا الذي يكون فيه صاحب هذا النوع من الشخصيات شريرًا محبًا للشر والفساد.

وكلا هذين النمطين متدرجين في سير أحداث القصة، فهناك الإيجابي صاحب الدور الفاعل، وهناك الإيجابي صاحب الدور الضعيف، ولعل من أوضح الأمثلة على هذا النمط من الشخصيات شخصية (بنيامين) الأخ

---

١) يُنظر: محمد، حسين علي، أبو ذياب، خليل إبراهيم، المدخل إلى التحرير العربي، ٢٠٠٨م، الرياض: دار النشر الدولي، ص٢٠٠.

الشقيق لنبي الله يوسف عليه السلام في هذه القصة، حيث يمثل النمط الإيجابي؛ لكنه في الوقت ذاته ضعيف الدور في أحداث ومجريات القصة. ومثل هذا التدرج يحصل كذلك مع الشخصية ذات النمط السلبي، فهناك السلبي صاحب الدور الفاعل، وأوضح مثال على هذا النمط في قصة يوسف عليه السلام هم إخوته الحاسدون الحاقدون المتربصون. وهناك السلبي صاحب الدور الضعيف مثل (أخي يوسف غير الشقيق) الذي اقترح عليهم عدم قتله وإنما الاكتفاء بإلقاء في الجب : ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[1] والنمط السلبي نمط متدرج في بعض الأحيان من حيث قوته وضعفه في دفع أحداث الشخصيات المتنامية أو الفاعلة الرئيسة في القصة، فعلى سبيل المثال نمط شخصية أولئك النسوة صويحبات امرأة العزيز في قصة يوسف عليه السلام التي بين أيدينا، فهو نمط سلبي ذو دور سلبي؛ لكنه في الوقت نفسه دور جاء ليساند دورين فاعلين قبله، بحيث إن شهادتهن ليوسف هي تبرئة له، ولومهن لصاحبتهن امرأة العزيز كان كافيًا لإدخالها في صراع نفسي رهيب ألجأها إلى استخدام الدليل والبرهان معهن لإقناعهن بعد لومهن الشديد لها، بأن ما فعلته مع النبي يوسف عليه السلام لم يكن بمحض إرادتها، وكامل اقتناعها، وإنما هو شيء فوق الإرادة والتحمل البشري، بدليل أنهن قطّعن أيديهن لما رأين يوسف عليه السلام بعد أن أذنت له بالخروج إليهن، والظهور لهن، حتى قلن بعدها: ﴿ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾[2]

---

١) سورة يوسف، الآية ١٠.

٢) سورة يوسف، الآية ٣١.

المبحث الثاني

تحليل شخصية يوسف عليه السلام سردياً في القرآن الكريم:

المطلب الأول: الأنماط والتطور

يتجه هذا المبحث إلى الجانب التطبيقي الذي سيرتكز على ثلاث مراحل مرت بها شخصية النبي يوسف عليه السلام، كانت هي المحرك لأحداث القصة كاملة، ونلخصها كما يلي:

المرحلة الأولى: مرحلة الغلام الأثير والمحبوب عند والده النبي الكريم يعقوب عليه السلام، التي يرى فيها الرؤية الصادقة، انتهاء بإلقاء إخوته له في غيابة جُبّ. ولنسمّها (مرحلة الرؤيا، وفتنة غيابة الجُب).

المرحلة الثانية: مرحلة اختبار الله له بوصوله رقًّا إلى بيت العزيز، وما حدث له من إغواء أدى به إلى السجن الذي زّج به فيه ظلمًا وعدوانًا جزاء طهره وعفته. ولنسمّها (مرحلة فتنة الإغواء والسجن).

المرحلة الثالثة: مرحلة اختبار الله تعالى له بالنعماء بعد أن عيّنه مَلِكُ مصر عزيزًا عليها حتى اجتماع شمل آل يعقوب في مصر، وتحقيق وتعبير رؤياه التي جاءت في أول القصة.[١] ولنسمّها (مرحلة فتنة الدنيا ومتطلبات المنصب الأثير واجتماع الشمل).

بدأت في المرحلة الأولى شخصية النبي يوسف عليه السلام شديدة القرب من والده، وهذا الوالد ليس أي والد بل هو النبي الكريم يعقوب عليه السلام في علاقة أبوية مباركة، تحفها الدعوات، ويكتنفها الحب والمودة، كان من دواعيها ولوازمها أن هيأت للغلام الصغير الراحة النفسية التي

---

١) يُنظر: با جودة، حسن محمد، الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام، ١٩٨٣م، ط٢، جدة: دار تهامة، ص١٧.

قادت بدورها إلى رؤيا لا كالرؤى ستكون فاتحة حركة سردية منظمة منذ ابتداء القص حتى انتهائه، لتجعل المتلقي في ترقب وشوق لما ستسفر عنه هذه الرؤيا، وهل ستتحقق، أم لا؟ وفيما لو تحققت فما النتائج المترتبة عليها؟

والشخصية الإنسانية في مثل هذه المرحلة الأولى من سني العمر تظل متأثرة بما حولها من الأجواء، والبيئة المحيطة بها خصوصًا في إطار الأسرة أو العائلة التي تنشأ في كنفها، بل إن كل ما يجري عليها لاحقًا من الشقاء أو السعادة، والرضا أو الحسرة، وكل منغصات الحياة، أو بهجتها إنما هو نتاج تكوين الشخصية في هذه المرحلة، فقرب الوالدين في هذه المرحلة واحتضانهما لأبنائهما تعني التنشئة والتربية والتقويم والتأديب، أو التقليد والاقتداء، على ما تؤكده كثير من الدراسات النفسية المتخصصة في هذا الإطار.[١]

وعودة إلى ذلك الإشراق الروحي، والصفاء النفسي الذي يمكن تلمسه في شخصية النبي الكريم يوسف عليه السلام في هذه المرحلة في موضعين من نص القصة:

أولهما: في تحديده الدقيق لتفاصيل رؤيته المنامية، ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ [٢] وتحديده لعدد الكواكب وأنها كانت (١١) كوكبًا، إذ لم يختلط عليه عددها؛ فأحد عشر ولكواكب متفرقة، ومتوافقًا مع عدد إخوته، وفي رؤية منامية هو الأمر الذي يشكّل ملمحًا بارزًا لدى مثل هذه الشخصية خصوصًا في سن طفولتها

١) يُنظر: مهدي، عباس، مرجع سابق، ص٣١، وما بعدها.
٢) سورة يوسف، الآية ٤.

المبكرة، ولو اقتصر الأمر على تحديد الشمس والقمر لكان ربما أيسر، ولأتى ملائمًا متلائمًا مع معطيات الشخصية في تلك المرحلة العمرية التي لا تلتفت إلا لكليات الأشياء وعموميتها.

وثاني الموضعين: في تحديده لمن قاموا بالسجود له لا لغيره، وذلك بقوله: ﴿لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾، ليلعب المكان السردي دوره في التأكيد على ما تحلت به الشخصية هنا من يقظة وشدة في التركيز، ودقة في الانتباه، جعله موقنًا بأن السجود في هذا الموضع إنما هو سجود خاص له هو، في مشهدية وصفية جاءت مؤكدة على الإشراق والصفاء الروحي والنفسي في أدق معانيهما، بما خلعه عليهما كنف أب حنون، وبيئة عايشها يوسف عليه السلام في تلك المرحلة، ورأى فيها تلك الرؤيا العجيبة. وكان لزامًا وبعد كل هذا التميز والتفرد لهذه الشخصية التي لم تفطن إلى ما يحاك لها بعفوية من يأمن عواقب الدهر؛ أن تتعرض للنيل والاعتداء والحسد الذي هو لازم من لوازم بعض النفوس الشريرة، والشخصيات غير السوية، الأمر الذي حدا بها أن تجد نفسها فجأة في غيابات جب عميق عمق ضغينة القلوب الحاقدة، والنفوس المريضة.

وقد امتد أثر شخصية يوسف عليه السلام في هذه المرحلة حتى وصل إلى وارد السيارة الذي استبشر به وبرؤيته البريئة، ومحياه الطاهر، ﴿قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ ۝١٩﴾ [1] فأي قوة تمتلكها هذه الشخصية، وأي حضور يمتلئ به فضاء القص هنا؟

كانت ليوسف عليه السلام شخصيته في هذه المرحلة؛ إلا أنها الشخصية التي لمّا تزل في الظل ولم يفسح لها السرد الطريق بعد لتنطلق

---

١) سورة يوسف، الآية ١٩.

نحو التفرد والاستقلالية، ويكفيها ما تميزت بـه مـن الإشـراق والصـفاء النفسي. وأما في إطار التطور الحاصل للشخصية في هـذه القصـة. وبعـد اكتمال هذه المرحلة فإننا سنكون من حيث نمطيتها أمام نمط إيجابي سوي، ومن حيث أثرها في بناء النص فإننا أمام شخصية رئيسة ذات تأثير كبير في مجريات كل الأحداث التي ستأتي تباعًا بعد ذلك.

أما في المرحلة الثانية: مرحلة فتنة الإغواء والسجن بعدما بلغ أشده، فإننا سنكون إزاء حضورين لافتين للشخصية: الحضـور الأول: فـي بيـت عزيز مصر. والحضور الثاني: في السجن. ففي الحضـور الأول لشخصـية يوسف عليه السلام في هذه المرحلة يتكشف لنا جليًـا جـوهره الأنبيـائي الطاهر، وما درج عليه في بيت النبوة بيت أبيه يعقوب عليه السـلام، ومـا خلع عليه من التربية، وحسن التوجيه، وصادق المتابعة، كل ذلك كان مـن مهدات السرد المؤسسة لأرضية ثابتة في مواقف حياتية هي بحاجـة إلـى صلابة الشخصية، وشديد تمسكها بقيمها التي آمنت بهـا، ومبادئهـا التـي تربت عليها، حتى لتأتي ثمار مثل ذلك في الوقت الذي تحتاج إليه الشخصية برغم ما أحيط بالنبي الكريم يوسف عليه السلام في بيت العزيز من ترحيب وحفاوة وتكريم ربما عوّضه أيامًا عصيبة في قعر جب مظلم، وموقفًا مؤلمًا من أقرب الناس إليه إخوته الذين دفعهم حسدهم إلى الإجـرام فـي حقـه، والشروع في قتله؛ لكن كل أولئك لم يكن مانعًا ليوسف أن يقول: "معاذ الله" ! في حيز مكاني مغلق شديد الإغلاق، محاط بكل دواعي الرذيلـة، لتظهـر بجلاء الشخصية المؤمنة السوية وبأبهى صورها، شخصية القـابض علـى دينه قبضه على الجمر في بيت عز وترف، وفي مجتمع لا ديني أصلًا، وسط مفارقات عجيبة ومع امرأة فرحت واستبشرت به ولدًا لهـا بـادئ الأمـر،

لتنقلب بعد ذلك إلى امرأة تحوك له المؤامرات الدنيئة، وتمهد له طريقًا غير سوي هو طريق الرذيلة والسوء والفحشاء، وحتمًا فإن السوء والفحشاء الذي قد صرفهما الله عنه في هكذا موقف لم يأتيا اعتباطًا، بل هو الجهد والمجاهدة الداخلية التي بذلتها الشخصية هنا، على خلفية تربية إيمانية رصينة، في كنف بيت النبوة، وفي مثل هذه المواقف تعرف الشخصيات الحيّة المقاومة لكل محاولات الإغراء. ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1] كل ذلك والشخصية هنا في تطور مرحلي متوافق ومعطيات سردية محكمة ستهيئه إلى مرحلة هي الأخطر؛ هي مرحلة النبوة.

ولم تكن شخصية النبي الكريم يوسف عليه السلام بأفضل حال في الحضور الثاني من هذه المرحلة عن سابقتها من توالي الضغوطات، وتأزم المواقف، وتوالي المصائب، إذ ليس بعد الزج به في السجن ظلمًا وعدوانًا، وسلبه حريته في سن الفتوة والشباب وانفتاح الحياة شيء؛ لكن كان لزامًا على الشخصية هنا أن تختار السجن بكل تبعاته، وبما فرضته كل تلك المعطيات السابقة من التربية الإيمانية، والتشبث بالعقيدة، ومبادئ العفة والطهر، ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾[2]، فأي شخصية هذه؟! وأي قوة تتمتع بها، وأي شكيمة تتحلى بها؟! وليت الأمر كان مجرد سجن؛ لكنه الألم النفسي، والقهر الاجتماعي وخصوصًا نظرته إلى الرجل الذي كان قد استوصى وأوصى به خيرًا، إنه

١) سورة يوسف، الآية ٢٣.
٢) سورة يوسف، الآية ٣٣.

العزيز الذي قد تخاذل عنه أيما تخاذل منحازًا إلى زوجته اللعوب، منتصـرًا لها ولقبح نيتها، وسوء فعلها، وهو الذي كان يعقد عليه الأمل في نصـرته ومؤازرته.

يدخل النبي الكريم يوسف عليه السلام السجن مختـارًا لـه، إذ غـدا السجن ملاذه الآمن من مجتمع يجره نحو الرذيلة جرًّا، ويقوده إليها قـودًا بعد أن تخاذل عنه العزيز والقريب والحبيب، ليلعب المكان السردي دوره في تحويل المكان الموحش إلى مكان أليف محبب، والمكان الضيق إلى الفسـيح الرحيب، والمكان المظلم إلى المضيء المنير، حيث يخلو فيـه إلـى لذيـذ مناجاته، وتصفو به نفسه، وترتقي به روحه نحو خالقه وعاصمه الذي قدّر له ما قدّر مزيدًا في التمحيص والاصطفاء، وهو شأو شخصيات الأنبياء من البشر، وبما خصهم الله جل في علاه مـن ألـوان الابـتلاءات، وصـنوف الامتحانات.

وتبرز في هذا المكان/السجن شخصية يوسف في تطور لافت لها بعـد سلسلة من المواقف العصيبة التي مرت بها، وكـأن الله قـد هيأهـا الآن، وجعلها مستعدة للقيام بأمر الدعوة إليه بكل لوازمها وشرائطها بعد تربيـة إيمانية حصيفة، وبعد حِلم على تعدي القريب، وعفة وصبر فـي مواجهـة الجاه والسلطان، وعصمة من السوء والفحشاء، وصدق كامل فـي الـدعاء والالتجاء. إنها شخصية الداعي إلى الله، وبعد مـرور عـدد مـن السـنين مسجونًا بلا ذنب اقترفه، أو جرم أحدثه؛ لكن الله أبدًا لـيس بمضـيّع مـن يصدق معه فيهيئ له الأمور في ترتيب رباني عجيب يدعو إلى التأمل، وأخذ الفوائد والدروس، حتى لتأتي لحظة لقائه بشخصيتين ثانويتين فـي مسـار أحداث القصة جاءتا للدفع بشخصية يوسف الرئيسة نحو الأمام، هما ذانـك

الفتيان المسجونان معه، بعد أن رأى كل منهما رؤيا لم يتأخرا في عرضهما على هذا السجين الذي يحمل في شخصيته كل معاني الحكمة والحصافة، ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [1] ولأن شخصية الداعي إلى الله لا همّ لها إلا الدعوة إلى الله، وتبصير الناس، والأخذ بأيديهم نحو الحق والطريق المستقيم، بل وجعل ذلك الهدف الأول لها؛ لذا نجدها لا تدخر وسعًا، أو تضيع فرصة في الدعوة وتبيان الحق، بل وتستثمر أي موقف في سبيل تحقيق مثل هذا الهدف النبيل. وقد كان من الممكن من النبي الكريم يوسف عليه السلام أن يشرع في تعبير رؤيتهما مباشرة، وهما المتحفزان لهذا التعبير من هذا السجين الحكيم؛ إلا إنه وجد من المناسب مستثمرًا تحفزهما ذلك أن يقوم على الفور بعمله الدعوي نافذًا إلى مخاطبة عقليهما بأسلوب متدرج مهّد فيه لقضيته الكبرى، مطمئنًا إياهما بتأويل ما يأتيهما من الطعام حتى في حال اليقظة: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [2] ومثل هذا فيه من ذكاء وحكمة الداعية ما فيه من استمالة القلوب والعقول إليه سيعًا منه إلى الوصول إلى هدفه الأسمى، وغايته المثلى. ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [3] إنه الدين الحنيف المتأصل أبًا عن

---

١) سورة يوسف، الآية ٣٦.

٢) سورة يوسف، الآية ٣٧.

٣) سورة يوسف، الآية ٣٨.

جد. وما دامت أن نفسَيي السجينين ما زالتا في تحفز وترقب؛ فهي اللحظة المناسبة للدعوة إلى توحيد الخالق سبحانه بخطاب مباشر جاء دوره ولحظته بعد سلسلة من التمهيدات: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[1] ولأن تعبير رؤيا هذين الفتيين لم يكن غاية مقصودة في ذاته جعله يوسف عليه السلام يأتي لاحقًا: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾[2] إنه هنا عليه السلام شخصية صاحب العلم اللدني الذي أكرمه ربه به، وميّزه به وبدأت إرهاصته الأولى منذ المراحل الأولى لشخصية النبي الكريم يوسف عليه السلام، ومنذ رؤياه الأولى، فكان أن قضي وحُسم أمر تعبير هذه الرؤيا، كل ذلك والسرد القصصي القرآني ما يزال يربط المتلقي بكل خيوط القصة خصوصًا ما يتعلق بالرؤى.

لقد جاء تعبير هذه الرؤيا بمثابة انفراجة أمل ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[3] على الرغم مما أنشأ السرد هنا من (عقدة) شدّت إليها مشاعر المتلقي، تمثلت في النسيان الذي كان سببه الشيطان الذي أنسى ذلك الناجي ذكر يوسف عليه السلام عند الملك، وإخباره بمظلمته، وأنه مسجون بغير جرم

---

١) سورة يوسف، الآيتان ٣٩، ٤٠.
٢) سورة يوسف، الآية ٤١.
٣) سورة يوسف، الآية ٤٢.

قد اقترفه، فكان أن لبث في السجن سنينًا أخرى عديدة ستكون كفيلة بإعداد هذه الشخصية لمرحلة أخرى جديدة تماهى السرد القرآني في التهيئة لها، سيكون لها ما لها من الرفعة والعلو والشأن والتمكين.

ثم يأتي الفرج، وتلوح في الأفق بواديه وبوادره وأيضًا من خلال الرؤيا التي برع يوسف عليه السلام في تأويلها، واشتهر بها: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [١] وهي الرؤيا التي أرّقت الملك، الأمر الذي الجأه إلى السؤال عن تفسيرها وتعبيرها ممن حوله من ملئه الذين أفتوا بأنها مجرد أضغاث أحلام يراها النائم، إلا أن الملك لمّا يزل في توجس وحيرة منها رغم فتواهم، وما أشاروا به؛ لكن أنّى لمعبّر أن يعبّر، وأنّى لمفسّر أن يفسّر وصاحب ذلك العلم، وتلك المعجزة موجود حاضر، وإن غيّبه السجن ظلمًا وعدوانًا وافتراء؟! وهنا يتذكر ذلك الناجي/ساقي الملك يوسفَ عليه السلام: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [٢] ليهبّ مسرعًا من فوره إليه يسأله عن تعبير وتأويل رؤيا الملك: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [٣] وهنا تظهر بجلاء شخصية النبي يوسف عليه السلام شخصية الواثق المتمكن مما وهبه الله من معجز الفعل، وفاضل الخلق، ولأنه يعلم حقيقة وخطورة رؤيا الملك وجدناه يهبّ

---

١) سورة يوسف، الآية ٤٣.

٢) سورة يوسف، الآية ٤٥.

٣) سورة يوسف، الآية ٤٦.

من فوره، ويردّ سريعًا على طلب تأويلها وتعبيرها، متناسيًا حتى مظلمته، وما وقع عليه من ظلم وجور أدخله غياهب سجن مظلم، إذ الأمر متعلق بحقوق ومصالح العباد والبلاد، وهذا شأو الشخصية السوية الحريصة على كل ما يهمّ المجتمع، فجاء التعبير لرؤيا الملك مباشرًا ودقيقًا، بل وممزوجًا بنصائح يكون فيها الحل والنصيحة المخلصة، إذ لا مجال للتأجيل أو التأخير والحالة تلك: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[1] إنها الشخصية الاجتماعية المصلحة المخلصة التي بلورتها الظروف، وصنعتها المواقف، كل ذلك وهو حبيس الزنازين المظلمة، مقيد الحرية، في مجتمع يحفل بكل خيبات التناقض، يرفل في مستنقعات الرذيلة والسوء والفحشاء.

ثم كان أن استبشر الملك بهذا التعبير الدقيق لرؤياه، معجبًا بشخصية معبّرها، حتى توقد سؤال أنعش سير الأحداث من حوله، وملأ فضاء المكان، وأوقف أيقونة الزمن، وصنع الحبكة، وأجج العقدة، ولعب فيه السرد بكل عناصره دوره بالشروع في حل هذا اللغز المحيّر، بحثًا عن تفاصيل جرم منسي، وتهمة عائمة؛ كيف لمثل هذه الشخصية أن تكون في السجن، أو لماذا هي في السجن؟!

كان لا بد إذن من استيضاح واستعلام: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾[2]

---

١) سورة يوسف، الآيات ٤٧ – ٤٩.

٢) سورة يوسف، الآية ٥٠.

وهنا لا بد لهذه الشخصية من أن تقول كلمتها، وتدافع عن نفسها دام أن الفرصة قد تهيأت، والظروف باتت مواتية، وتسأل مباشرة عن عدد من الأحداث والمواقف لعلها تضع الإجابات المنطقية، والتعليلات المقنعة للزج بها في السجن من غير تهمة واضحة، ولا حتى محاكمة عادلة، في قضية الخصم فيها والحكم واحد، بل حق لها أن تأنف فتسمو شامخة فارضة ذاتها وحضورها بعد سنوات من الغياب أو هو التغييب المقصود.

ثم إن الحكمة التي تعلمتها هذه الشخصية كانت كفيلة برد الفعل هذا، وإلا لو قبلت مجرد القبول بالإذعان لطلب الملك الحضور إليه وملاقاته قبل تبيان حقيقة سجنها كل هذه السنوات، لكان ذلك إثبات منها بما اتفق عليه باطلًا أن يكون جرمًا في حقها، وتأكيدًا وتأييدًا لفعل الرذيلة والمراودة المدعاة لزوجة العزيز.

كذلك اقتضت الحكمة أن تكون القضية والمحاكمة وكل تبعاتهما الآن في يد الملك بما يمثله من السلطة والجاه كما كانت سابقًا ضحية لهذه الطبقة، فلا بد أن يأتي الإعلان عن براءتها وعفتها وطهارتها من الطبقة ذاتها، فلا أقوى من هذه الشخصية في مثل هذا الموقف الحاسم. وكان كذلك من اقتضاء هذه الحكمة التي تشرّبها النبي الكريم يوسف عليه السلام أن لا يطالب فورًا بالإشارة أو التحقيق مع امرأة العزيز صاحبة المشكلة وصانعتها؛ لكنه بذكاء أشار إلى مساءلة جميع أولئك النسوة اللاتي قطّعن أيديهن بعد خروجه عليهن بأمر من امرأة العزيز، ومثل هذه المساءلة قطعًا ستكون كفيلة بمساءلات أخرى أكثر دقة، وأكثر تفصيلًا حول هذه القضية ستحقق له ما أراد الوصول إليه

ومن ذلك ما أنطق الله به امرأة العزيز من الحق: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [1] إنها لحظة التنوير السردي، والانكشاف، والتجلي، وانزياح الستار، وهي اللحظة التي فاجأت المتلقي على غير توقع منه، وهو الذي ما كان ليتوقع أن يأتي اعتراف امرأة العزيز صاحبة الجاه والسلطان والنفوذ بهذه السرعة، وتلك الكيفية التي اعترفت بها، وعلى الملأ والأشهاد؛ لكنها إرادة وحكمة المولى القدير ناصر المظلومين، وفاضح وقاصم الجبابرة والظالمين مهما طالت السنون، وتوالت الأعوام.

نعم ظهر الحق الآن وحصحص، وتأكد صدق ثم براءة هذه الشخصية الصابرة المتوكلة التي اعتركتها المواقف، وشكلتها التجارب، وحق لها أن تقف بعد ذلك بشموخ وأنفة، فيكون من نصيبها الاصطفاء والانتقاء والتقريب؛ ليستخلصه الملك لنفسه، ولتدبر أمور البلاد والعباد، وهل لغير هذا المنصب الكبير والخطير إلا الشخصية السوية الأمينة؟

ثم تأتي المرحلة الثالثة والأخيرة في شخصية النبي الكريم يوسف عليه السلام، وهي مرحلة فتنة الدنيا ومتطلبات المنصب الأثير، واجتماع الشمل؛ فقد كان حقًا على الشخصية المقتدرة التي آمنت بقدراتها ومقدراتها، وامتلكت أدواتها وتمكنت منها أن تقدم نفسها لتكون في الموضع المناسب، والمكان والمكانة اللائقة بها: ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [2]

---

١) سورة يوسف، الآية ٥١.

٢) سورة يوسف، الآية ٥٥.

ولن يكون لمتعجب أن يتعجب، ولا لمستنكر أن يستنكر على النبي الكريم وبعد كل هذه الأحداث، وثبات شخصيته فيها ثبات الجبال الراسيات، أن يصدح بالمبالغة في صيغتي "حفيظ"، و"عليم"، بل إن المتدبر والمتأمل في استعمالهما هنا ليدرك بأن النبي الكريم يوسف عليه السلام إنما أعطى لنفسه شيئًا يسيرًا مما يستحقه تعويضًا عن كل تلك السنوات المظلمات بما حوته من العذابات والآلام، إضافة إلى قدرة فريدة في حسن الإدارة، وتصريف شؤون العباد والبلاد؛ لذا فلا أقل من أنه أعطى لنفسه بعض ما تستحق وليس كل الذي تستحق.

وإنه بعد ذلك قد يتبادر إلى ذهن المتلقي وبما فرضته بعض معطيات السرد هنا بأن شخصية يوسف عليه السلام بعد أن تحقق لها التمكين ستتحول إلى شخصية أخرى قد تغيرها متطلبات المنصب، ولوازم الاستوزار، وكان لزامًا على السرد أن يمهّد لشخصيته، وأن ينهض بها في قوة يستدعيها المقام، ويسندها الحدث، فكان أن أتى إخوة يوسف إلى مصر في هذا التوقيت طلبًا للطعام بعد أن أجدب الناس من حولهم: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (١)

قد كان من الطبعي أن يعرفهم؛ لأن الله أنجاه منهم ومن كيدهم وبطشهم، وكتب له الحياة، وكان من الطبعي أن لا يعرفونه وينكرونه؛ لأن شيطانهم وحقدهم وحسدهم كانوا يؤكدون لهم على الدوام أن يوسف قد قضى نحبه في تلك البئر السحيقة، وما كان لينجو، وذلك هو حال الشخصيات الشريرة غير السوية التي من شأنها تعكير صفو الحياة، والعبث بكل معاني الجمال والنقاء بها.

---

١) سورة يوسف، الآية ٥٨.

أتى الإخوة وأتت معهم الذكريات الأليمة، ذكريات المؤامرات، والكيد، وتسويل الشيطان، ذكريات البئر المظلمة، وإن كان الإخوة قد نسوا أو تناسوا كل ذلك فإن الشخصية الحرة اليقظة لا يمكن لها نسيان ذلك؛ لكن ولأنها شخصية قد شكلتها المواقف، واعتركتها الظروف، وقومتها التجارب، وصقلتها بعد ذلك النفحات الإلهية لن تقابل السوء بالسوء، ولا الكيد بالكيد، ولا الحقد بالحقد، فالشخصية السوية الخيّرة لا تفعل ذلك، فما بالنا بشخصية نبي مصطفى، ورجل مجتبى؟ فقد كان لزامًا على النبي الكريم يوسف عليه السلام هنا أن يعامل إخوته المعاملة الحسنة، ويكرمهم الإكرام الذي لا يليق بهم إنما يليق بشخصيته عليه السلام. ولعله آن الأوان الآن لتردّ هذه الشخصية شيئًا من اعتبارها وبما تفرضه لوازم العدل، ولوازم أن الجزاء من جنس العمل، نعم فقد حانت اللحظة لذلك، وأضحت مواتية لتنفيذ دروس تطبيقية، وإجراءات تنفيذية، ودواع تربوية ليس بهدف الانتقام؛ لكن لتقويم السلوك المعوج بحق هذا الرهط من الإخوة الذين تسببوا له بكثير من الآلام الجسدية، والأزمات النفسية: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ (١) فكان القرار؛ الأخ من الأب مقابل الطعام، وما عدا ذلك فليس مقبولًا بل هو مضيعة للوقت، إنه الفكر الثاقب، والعقاب العادل، فهو يعرف، وهم يعرفون كذلك أن مثل هذا الطلب إنما سيضعهم حقيقة أمام والدهم النبي الكريم يعقوب عليه السلام، وفي مواجهة بحقيقة أمرهم، وشنيع فعلتهم الأولى بأخيهم يوسف الكريم.

---

١) سورة يوسف، الآيتان ٥٩، ٦٠.

وينطلق بنا السرد مستعرضًا كثيرًا من المواقف الدالة على شخصية النبي الكريم يوسف عليه السلام، ومقتضياتها في تقويم اعوجاج إخوته، وتأديبهم لا انتقامًا لنفسه. ثم كان أن وصل الأخ الشقيق بعد المحاولات والمحاولات، والعهود والعهود، ليقف بنا السرد عند مشهد من مشاهد الرحمة لهذه الشخصية السامقة، إنه مشهد الأخوة الحانية، واللقاء بعد الفراق: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾[١]

يعقب ذلك مشهد مواجهة هؤلاء الإخوة بجرمهم، وما اقترفته أيديهم بحيث يلعب استرجاع الزمن هنا دوره في تأجيج الحدث، والاتجاه بالعقدة نحو لحظة الانفراج لحظة اعتراف النبي يوسف عليه السلام لإخوته بشخصيته، وإنها لأصعب لحظات قد تكون مرت بهم، إنها لحظة انتصار الحق على الباطل، والعدل على الظلم، وهنا تظهر الشخصية النبيلة المتسامية، شخصية من قدر فعفا، من تمكن فتجاوز، ويكفي الإخوة ما نالهم من موقف الخزي والضعف الذي كانوا عليه في هذه الأثناء، لينطلق لسان حال الشخصية الصابرة والواثقة بعد ذلك: ﴿ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾[٢] اذهبوا قد عفوت عنكم، وليغفر الله لكم.

ولن تكتمل الصورة إلا باجتماع الشمل من جديد حيث تأبى الشخصية القويمة إلا أن تظهر برها خصوصًا بالآباء الذين تدين لهم بالفضل، والأمر كذلك مع هذا الأب الصابر، والنبي المخلَص يعقوب عليه السلام لا بد له من خصوصية متفردة إذ هو المشارك الأنموذجي في صنع القصة منذ ابتدائها، وهو الغائب الحاضر في كل فصولها ومفاصلها حتى أصابه العمى، وفقد

١) سورة يوسف، الآية ٦٩.

٢) سورة يوسف، الآية ٩٢.

بصره بفقده فلذة كبده: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣﴾[1] ثم يتكرر مشهد من مشاهد اللقاء بعد فرقة سنين طويلة، وأعوام مديدة، إنه مشهد الاحتضان، احتضان هذه الشخصية في قوة أنفها، وعز شموخها، وهي تحتضن أبوين جليلين تعهداها من قبل بالرعاية والحب والعطف والحنان، فيأتي هنا المشهد متوافقًا مع تلك المعاني كلها: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾[2] نعم إنه الأمان بعد الخوف، والالتقاء بعد الفرقة والشتات.

وللمتأمل أن يتأمل كيف قدّم السرد القرآني موجزًا سريعًا في ختم القصة لخّص فيه أهم ما واجهته شخصية يوسف النبي الكريم عليه السلام منذ الرؤيا وحتى اجتماع الشمل مرة أخرى، وفي ذلك دليل على اكتمال شخصيته عليه السلام بعد عدد من التطورات التي لحقت بها، وعدد من المحطات التي مرت عليها: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾[3] بعد كل هذا سيكون حريًا بهذه الشخصية السوية المؤمنة المكتملة أن تتوجه إلى بارئها، والمنعم عليها، ومصطفيها بطيب الدعاء، وجميل الإقرار، وحسن الرجاء: ﴿۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾[4]

---

١) سورة يوسف، الآية ٩٣.
٢) سورة يوسف، الآية ٩٩.
٣) سورة يوسف، الآية ١٠٠.
٤) سورة يوسف، الآية ١٠١.

المطلب الثاني: علاقة الشخصية بعناصر بناء القصة وتقنياتها السردية

لا تنفصل الشخصية عن عناصر بناء الفن القصصي، ولا يمكن تناولها أيضًا من خلال عزلها عن سياق ظهورها وتطورها. ومن ثم فإن عناصر البناء متشابكة مترابطة تؤدي دورًا واحدًا وتقدم بناء كليا متآزرًا؛ لذا آثر البحث هنا أن يقف عند بعض الملامح الفنية لعناصر القصة وتقنيات السرد، إبرازًا لملامح الشخصية نفسها، والمواقف النفسية التي مرت بها لاسيما ونحن نتناول شخصية واجهت ما واجهت من مواقف إنسانية وتحديات، ومرت بتطورات زمنية متنوعة، وبأجواء نفسية عصيبة.

– أدى الحوار دورًا مهما في تعبير الشخصية عن ذاتها وعن كوامن نفسها ابتداء من حوارها مع الأب في حديث الرؤيا وانتهاء بمناجاتها مع ربها جل وعلا.

– مر الحوار بأطوار متنوعة مع الشخصيات الرئيسة في القصة (الأب، الإخوة، امرأة العزيز، فضلا عن صاحبي السجن). ومن ثم فالأجواء النفسية التي عاشتها الشخصية تقرأ بسياقات متنوعة تلائم كل موقف على حدة "فالسورة حافلة بمشاهد تتجلى فيها انفعالات الغيرة والحزن والغضب والخوف والسرور... وفي السورة أيضا مشهد لابتلاء النبي يعقوب–عليه السلام–بفقدان ابنه وفقدان بصره، ومشهد لصبره الطويل، وعدم تسرب اليأس إلى قلبه رغم معاناته الشديدة"[١]

ولنا أن نتأمل الدلالات الموحية في حوار يوسف عليه السلام مع شخصيات القصة، فمثلا: عندما خاطب أباه قائلا ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا

---

١) موقع الألوكة www.alukah.net مقال: سورة يوسف، قراءة نفسية، مصطفى مولود عشوي، الرياض: مجلة الملك سعود، م١٥ ص٨٧٩،٩٢٢

وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [١] يستهل الحوار بمفردة تعبر عن حس شفيف رغم بساطتها وواقعيتها (يَـٰٓأَبَتِ) ثم حرص الشخصية عن الإفصاح والبوح عن مكنونها.

ونجد أيضًا من الوقفات المهمة في حواره مع امرأة العزيز وهو يواجه موقفًا فيه من الصراع والشدة ما فيه لذا يأتي الحوار بصوت الإنسان والنبي معًا ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [٢] فهو تركيب يصف ضيق النفس عن تحمل ما لا تطيق ويوحي بنبرة حسم وقوة. وتأتي (تقنية السرد) هنا مرتكزة على بنية ضمير المتكلم الذي يحاول أن يدفع الابتلاء، ويدافع عن موقفه وتوجهه مستخدمًا صفة "الظلم" بما فيها من حدة لإرسال رسالة ضمنية عن قبح الفعل والتصرف.

وبنية التكلم أيضا بوصفها تقنية سردية مهمة تطل علينا في قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [٣] والتكلم هنا مقرون بمناجاة نفس فيها ما فيها من هم وألم، لذا اختارت أن تبوح إلى ربها بما تحمله بين جنباتها.

ومن الوقفات المهمة أيضًا مشهد إخوة يوسف ﴿ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [٤]

---

١) سورة يوسف، الآية ٤.
٢) سورة يوسف، الآية ٢٣.
٣) سورة يوسف، الآية ٣٣.
٤) سورة يوسف، الآية ٥٨.

إذ الصورة الكلية للمشهد ترسم مشهدًا مؤثرًا، إخوة فعلوا في أخيهم ما فعلوه، ثم هذا الأخ الذي يحمل بين خلجاته ما يحمله لذا تأتي جملة: (فَعَرَفَهُم وَهُم لَهُۥ مُنكِرُونَ) جملة كاشفة عن ظلال المشهد ومتضمنة ما لا نعرفه أيضًا "وعليه، تكون المحتويات المضمرة موجودة في أي مكان، وليس ثمة ما يدعو بالضرورة إلى القلق من ذلك، إذًا لا بد من الإقرار بحال المتكلم في إنجاز فعل القول المضمر؛ لأنه يخفف من حدة الأفعال المهددة للوجود، لا بل أيضًا لأنه يترك هامشًا من الحرية للمتكلم والمتلقي كليهما، كذلك لأنه يفرض أخيرًا نوعًا من التشويق التأويلي"[١]

وتفصح اللغة عن كثير من مكنون نفس الشخصية في مواقفها المختلفة. ولا ننسى أن عناصر الزمان والمكان والحبكة ساعدت في رسم جوانب كل مشهد على حدة لاسيما في تنوع الأماكن المفتوحة والمغلقة (البئر،السجن،مصر..).

ومن الومضات التي تلفت الانتباه ما جاء في آخر القصة من مناجاة تستخدم تعبيرات الحمد والشكر ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾[٢]،

فصوت الشخصية وهو يرتكز على بنية التكلم يوحي بامتنان وثقة وسكينة واطمئنان، ومن ثم فيمكن القول بأن شخصية يوسف عليه السلام تنوعت في ملامحها وتموجاتها النفسية وعبرت عن ذلك بلغة متنوعة تراعي الحدث، والموقف، والبنية الكلية للقصة.

---

١) المضمر، كاترين- أوريكيوني، ترجمة ريتا خاطر، مراجعة د. جوزيف شريم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، بدعم من مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، ط الأولى، بيروت، ديسمبر ٢٠٠٨م. ص ١٠

٢) سورة يوسف، الآية ١٠١.

الخاتمة:

مرت شخصية النبي الكريم يوسف عليه السلام إجمالًا بثلاث مراحل هي:

المرحلة الأولى: مرحلة الغلام الأثير والمحبوب عند والده النبي الكريم يعقوب عليه السلام، التي يرى فيها الرؤية الصادقة، انتهاء بإلقاء إخوته له في غيابة جُبّ. وسمّاها البحث (مرحلة الرؤيا، وفتنة غيابة الجُب). ومما كان ملاحظًا على الشخصية في هذه المرحلة أنها الشخصية التي لمّا تزل في الظل، ولم يفسح لها السرد الطريق بعد لتنطلق نحو التفرد والاستقلالية، ويكفيها ما تميزت به من الإشراق والصفاء النفسي.

ثم المرحلة الثانية: مرحلة اختبار الله له بوصوله رقًّا إلى بيت العزيز، وما حدث له من إغواء أدى به إلى السجن الذي زّج به فيه ظلمًا وعدوانًا جزاء طهره وعفته. أطلق عليها البحث (مرحلة فتنة الإغواء والسجن). ومما كان ملاحظًا على الشخصية في هذه المرحلة هو جوهرها الأنبيائي الطاهر، وما درجت عليه في بيت النبوة بيت يعقوب عليه السلام، وما خلع عليها من التربية، وحسن التوجيه، وصادق المتابعة لتصبر بعد ذلك على الفتنة ودواعيها، وتمنع نفسها من الوقوع في الرذيلة والسوء والفحشاء، الأمر الذي شكّلها شخصية نقية سليمة زكية مما جعلها مهيأة للقيام بأمر الدعوة إلى الله بكل لوازمها وشرائطها، وهي الشخصية القادرة المتمكنة مما وهبها الله من معجز الفعل، وفاضل الخلق، إنها الشخصية الاجتماعية المصلحة المخلصة التي بلورتها الظروف، رغم الظلم والسجن والاضطهاد.

ثم المرحلة الثالثة: مرحلة اختبار الله تعالى له بالنعماء بعد أن عيّنه مَلِكُ مصر عزيزًا عليها حتى اجتماع شمل آل يعقوب في مصر، وتحقيق وتعبير رؤياه التي جاءت في أول القصة. سمّاها البحث (مرحلة فتنة الدنيا

ومتطلبات المنصب الأثير واجتماع الشمل). ومما كان ملاحظًا على الشخصية بعد انتهاء هذه المرحلة هو قوة أنفتها، وعز شموخها، فأضحت الشخصية المقتدرة التي آمنت بقدراتها ومقدراتها، وامتلكت أدواتها، وتمكنت منها؛ لتقدم نفسها لتكون في الموضع المناسب، والمكان والمكانة اللائقة بها.

وظهرت شخصية يوسف عليه السلام من حيث أثرها في بناء النص شخصية (رئيسة) لعبت الدور الأكبر والأبرز في مجريات وأحداث القصة. وكانت كذلك شخصية (متنامية) جرى تكوينها من أول القصة، وتشكلت بتمامها بحيث تطورت من حدث إلى آخر، وظهر لنا تطورها من موقف لآخر، وظهر لها في كل موقف تصرّف جديد كشف لنا عن جانب جديد منها.

كذلك قامت تقنيات السرد بدور مؤثر وفاعل حيث رسمت جوانب المشهد، وعبّرت عن مكنون الشخصية وتكامل دورها مع عناصر البناء في القصة من الزمان والمكان والشخصية والحوار.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- إسماعيل، عز الدين، الأدب وفنونه، دراسة ونقد، ٢٠٠٢م، ط٨، القاهرة: دار الفكر العربي.
- الألوكة www.alukah.net مقال: سورة يوسف، قراءة نفسية، مصطفى مولود عشوي، الرياض: مجلة الملك سعود، مج/١٥.
- أوريكيوني، كاترين، المضمر، ترجمة: ريتا خاطر، مراجعة د. جوزيف شريم، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، بدعم من مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٨م.
- با جودة، حسن محمد، الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام، ١٩٨٣م، ط٢، جدة: دار تهامة.
- بارت، رولان، مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، ترجمة: د. منذر عياشي، حلب: مركز الإنماء الحضاري، ١٩٩٣م.
- بنكراد، سعيد، سيميولوجية الشخصيات السردية، رواية الشراع والعاصفة لحنّا مينة نموذجًا، عمّان: دار مجدلاوي، ٢٠٠٣م.
- التنوخي، محمد، المعجم المفصل في الأدب، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ط)، ١٩٩٣م، ج٢.
- جابر، عبدالحميد جابر، نظريات الشخصية، مج/١٦، ع/٣، مجلة العلوم الاجتماعية، الكويت: جامعة الكويت-مجلس النشر العلمي، ١٩٨٨م.
- جوف، فانسون، أثر الشخصية في الرواية، ترجمة: لحسَن أحمامة، دمشق: دار التكوين لتأليف والترجمة والنشر، ٢٠١٢.

- روزنفال ويودين، الموسوعة الفلسفية، ترجمة: سمير كرم، بيروت: دار الطليعة، ط٢، ١٩٨٠م، مادة: (شَخَصَ).

- سلام، محمد زغلول، النقد الدبي الحديث أصوله واتجاهات رواده، (د.ط)، الاسكندرية: منشأة المعارف.

- العيد، يمنى، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، بيروت: دار الفارابي، ط٢، ١٩٩٩م.

- الفواز، الريم مفوز، سيميائية الشخصية في الرواية السعودية، بيروت: دار الانتشار العربي، جدة: النادي الأدبي الثقافي بجدة، ٢٠١٥م.

- الفيروزابادي، مجد الدين، القاموس المحيط، مجلد/٢، بيروت: دار المعرفة، (د.ط).

- القاضي، محمد، وآخرون، معجم السرديات، تونس: دار محمد علي، لبنان: دار الفارابي، ٢٠١٠م.

- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، القاهرة: دار إحياء التراث، ط٢، ١٩٧٣م، مادة: (شَخَصَ).

- محمد، حسين علي، أبو ذياب، خليل إبراهيم، المدخل إلى التحرير العربي، ٢٠٠٨م، الرياض: دار النشر الدولي.

- مصطفى، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، ج/١. استانبول: المكتبة الإسلامية، (د.ط).

- مهدي، عباس، الشخصية بين النجاح والفشل، بيروت: دار الحرف العربي، ودار المناهل، ١٤١٩هـ=١٩٩٨م.

- هامون، فيليب، سمولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة: سعيد بنكراد، اللاذقية: دار الحوار، ٢٠١٣م.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	١٥٣٥
٢-	Abstract	١٥٣٧
٣-	المقدمة:	١٥٣٩
٤-	تمهيد:	١٥٤٢
٥-	المبحث الأول : الشخصية السردية: تعريفها وملامحها وأقسامها وأنماطها	١٥٤٥
٦-	المبحث الثاني: تحليل شخصية يوسف عليه السلام سردياً في القرآن الكريم	١٥٥٤
٧-	المطلب الأول: الأنماط والتطور	١٥٥٤
٨-	المطلب الثاني: علاقة الشخصية بعناصر بناء القصة وتقنياتها السردية	١٥٧٠
٩-	الخاتمة:	١٥٧٣
١٠-	المصادر والمراجع:	١٥٧٥
١١-	فهرس الموضوعات	١٥٧٧